همسة في آذان البنات الباحثات عن الحرية: هذه كرامة المرأة بين ثلاث حضارات

إعداد: ماجد بن سليمان الرسي

راعى الإسلام طبيعة الأنثى الرقيقة، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالرفق بهن فقال: "رفقاً بالقوارير"، وأوصى بهن خيراً فقال: "استوصوا بالنساء خيراً"، ولم يُكلِّف الإسلامُ المرأة بالأعمال التي فيها مشقة، ولو كانت من أفضل العبادات، ولهذا لما سألت عائشةُ النبي صلى الله عليه وسلم: هل على النساء جهاد؟ قال: نعم، جهاد لا شوكة فيه، الحج والعمرة.

وبناء عليه فالذين يطالبون بالمساواة بين الجنسين في الأعمال الجسدية مع علمهم بالفروقات البيولوجية (الطبيعية) والفسيولوجية (الجسدية) والسيكولوجية (النفسية) بينهما؛ فإنهم في الحقيقة مخالفون للعقل والفطرة والشرع.

ولا يخفى أن (الإسلام في جملته لا يزج بالمرأة في وظائف الرجال رفقاً بها، وإبقاءً على شرفها، ورعاية لرقة شعورها، ولطافة جوهرها، لا احتقارا لمنزلتها، ولا استخفافًا بشأنها).[1]

هذه واحدة.

كما لم يكلف الإسلامُ المرأة بأعمالٍ تكون فيها سببا لإثارة شهوة الرجال، لأن هذا مضرٌّ للطرفين، فهو مضرٌّ للمرأة لِكون التشهي عليها فيه حطٌّ من قدرها، وإنقاص لكرامتها وكرامة زوجها وقومها، كما أنه مضرٌّ للرجل بإثارة غريزته تجاهها، وافتتانه بها، وإضعاف دينه، وكل هذا يحصل بأمرين، كشف الوجه والاختلاط.

هذه الثانية.

وقد نص الشارع الحكيم، الخبير بما يصلح الخلق وما يفسدهم؛ على أن الفتنة بالنساء هي أعظم فتنة، ففي الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء). فلهذا جاء الأمر بفصل مجتمع النساء عن مجتمع

---

[1] قال ذلك الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله، (آثار الإبراهيمي 130/3)، بتصرف يسير.

الرجال بقدر الإمكان، وعلى رأس ذلك مجتمع الصلاة والدروس والخطب، وما سوى ذلك من باب أولى.

هذه الثالثة.

كما نهى الإسلام عن الخلوة بينهما، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا يَخْلُوَنَّ رجل بامرأة إلا والشيطان ثالثهما.

هذه الرابعة.

كما أمر الله تعالى المرأة بأربعة أمور للحد من افتتان الرجل بها، فقال: (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقُلن قولا معروفا)، وقال (وقرن في بيوتكن)، وقال (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى)، وقال (وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله).

فإذا فعلت المرأة ما تقدم (المحافظة على الطاعات، وترك التبرج، وترك الخضوع بالقول، والقرار في البيت)؛ تحقق فيها وفي مجتمع النساء الوصف المذكور في آخر الآية وهو الطهارة المعنوية (ويطهركم تطهيرا).

هذه الخامسة.

ومن باب العلم بالشيء، واختصارِ تجربة العالم فيما يُسمى بتحرير المرأة على مدى قرن من الزمان؛ فإنه يوجد في العالم اتجاهان في هذا الشأن؛ **الاتجاه الأول** يَرى أن أسمى وأنبل عمل للمرأة هو عملها في منزلها، وأنها إن عملت خارج المنزل فإن الدافع والمبرر لذلك ينبغي أن يكون هو **الحاجة،** وأنَّ على المجتمع أن يعتبر ذلك تضحية من المرأة، كما أن عليه أن يعمل على أن يُحرِّر المرأة من هذه الحاجة، أو على الأقل أن يُقلِّل من عملها خارج المنزل لئلا يطغى على عملها الأساسي كراعية أسرة.

والاتجاه الثاني يرى أن عمل المرأة خارج المنزل لا ينبغي أن يكون الدافع والمبرر له هو الحاجة، إنما هو **الاختيار،** بناء على فكرة أن عملها خارج المنزل تحصل بها تحقيق ذاتها واستقلال إرادتها، ومن ثَمَّ تَحَرُّرِها من التبعية للرجل وتحقيقها للمساواة معه.

والعالَم قد مر بتجربتين مهمتين تتحيزان **للاتجاه الثاني؛ الأولى** منهما تجربة الثورة الشيوعية،

عندما أطلق «لينين» شعاره المشهور (أن المجتمع لا يمكن أن يتقدم ونصف أفراده في المطبخ)، على حد تعبيره، ثم لما حقَّق نظامه الشيوعي مساواة المرأة بالرجل في العمل، واستمرت هذه التجربة حوالي سبعين سنة، وأنهار النظام الشيوعي؛ عند ذلك أعلن زعيم إعادة البناء (غورباتشوف) أن المساواة بين الرجل والمرأة في العمل قد تحقَّقت، ولكن تبين أن هناك عجزا في مزاولة المرأة لدورها كأم وربة منزل، ونصَّ على أن وظيفتها التربوية لا غِنى للمجتمع عنها، وأن كثيراً من المشاكل التي يواجهها الشباب في سلوكهم أو ثقافتهم أو في إنتاجهم يعود سببه **لمبدأ مساواة الرجل بالمرأة في ميدان العمل**.

وأما **التجربة الثانية** فكانت في الولايات المتحدة الأمريكية في بداية الستينات الميلادية، حين قامت الحركة النَّسوية التي اتخذت شعار **المساواة التامة بين الرجل والمرأة**، وبعد أربعة عقود – وعلى الأخص في عام 2005م – أُجرِيت دراسة إحصائية أظهرت أن نصف النساء مِمَّن هُنَّ من الأكثر امتيازا وأرقى تعليماً اخترن العودة إلى البيت والعمل كربات بيوت، وعَزَّزت هذه الدراسة دراسات أخرى كثيرة.

وهكذا الإنسان عندما يحاول بطيشه وجهله أن يُعارض أو يصادم قوانين الطبيعة (سُنن الله الكونية) فإنه في النهاية سيُهزم أمامها مهما بذل من جهد ووقت، وهنا تتبين حكمة الإسلام في مسايرته لقوانين الطبيعة، فهو لا يعتبرها عدواً ثم يحاول أن يقهرها، وإنما يعتبرها أشياء سخرها الله للاستفادة منها، ثم يدعو إلى الانسجام والتوافق معها، فإذا كانت القوانين الطبيعية تُحقق مساواة التكامل – وليس مساواة التماثل – بين الرجل والمرأة، فتَعترف بالفروق بينهما في الوظائف البيولوجية (الطبيعية) والفسيولوجية (الجسدية) والسيكولوجية (النفسية)؛ فالإسلام بدوره ينسجم بتشريعاته مع هذه القوانين، لأن الله خلق الإنسان وشرع ما يُصلِحه، (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير).

ومن المؤسف أن الثقافة المعاصرة في الغالب لا تُقرِّر للناس هذا التقرير.

هذه السادسة.

والعالم أصبح في هذا الوقت تحت قبضة أقوى قوة عرفها التاريخ وهي **الإعلام**، فهو أقوى من الجيوش ومن السياسة ومن الاقتصاد، فهو يغزو الفكر ويستولي على القلوب، ومع الأسف فإن

الذين يسعون في الأرض فساداً لهم نفوذٌ ظاهرٌ فيه، وأعظم ما غزا به الإعلام عقول المسلمين هو **الشبهات التي تسعى لإفساد المرأة،** لأنه يعلم أن إفساد المجتمع المسلم مرهون بإفساد المرأة، سواء بإلغاء أو تحجيم دورها في البيت (بإخراجها من البيت بحجة العمل)، أو بإفساد عقلها وهي ماكثة فيه.

هذه السابعة.

والمسلمون وإن كانوا يتمتعون حقيقة بملكية أسمى وأرقى نظام، وهو النظام الإسلامي؛ ولكنَّ هذا لا يعني أنهم في حصانة من التأثر بهذا الإعلام، أو التأثر بثقافة العولمة التي يحملها، لأن الناس يتفاوتون في مستوى تحصنهم من مفاسد الإعلام، وما يُزيَّن فيه من شبهات وشهوات، ولهذا فإنه من الواجب على المربين ودعاة الإصلاح أن يُوعُّوا الأمة إلى جوانب السُّمو والرُّقي والتقدم الحضاري والأخلاقي في الثقافة الإسلامية، سواء فيما يتعلق بالمرأة أو غيره، وفي نفس الوقت يُوعُّوهم بجوانب التخلف في الحضارات البعيدة من هداية الوحي، والذي تعاني منه المجتمعات الغربية، والتي صارت المرأة عندهم وسيلة استمتاع وترفيه، تارة بالمجان بين الأصدقاء، وتارة بمقابل مادي، ففي غالب المجتمعات الغربية والشرقية كثيرة تؤجَّر المرأة بالليلة على الرجال كما تؤجر السيارة والشقة الفندقية، وتمتد هذه الفترة الترفيهية للرجال من حين بلوغها إلى أن تصل إلى سن الخمسين، ثم بعد هذا تجد نفسها كالـمُنْبَـتِّ في البيداء، لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى، لا هي استفادت شيئا من ابتذال كرامتها طوال فترة شبابها، كوسيلة تلذُّذ واستمتاع بين الأصدقاء الذين تركوها وراحوا يستمتعوا بغيرها، ولا هي حفظت كرامتها وشرفها، وحينئذ لا تجد المرأة أمامها إلا طرقا أربعة لترتاح من هذا الألم النفسي؛ إما تعاطي الحبوب النفسية، وإما الانتحار، وإما التلهي بالخمر، وإما تعاطي المخدرات، وكلا الأخيرين يُذهب العقل، ويجعل الإنسان في نشوة، كما قال الشاعر:

ونشربها فتتركنا ملوكا وأُسْدًا لا يُـنهنِـهُها اللقاء

أي لا يرُدُّها لقاء العدو ولا يُخوِّفها.

وفي نهاية المطاف إن طال العمر بالمرأة ولم تستطع القيام بنفسها فليس لها طريق إلا إلى دُور العجزة، وإن كانت سعيدة حظ؛ زارها بعض أبنائها مرة في الأسبوع ووقفوا عندها قليلا.

هذه الثامنة.

ولهذا فإنكَ — أيها القارئ الكريم وأيتها القارئة الكريمة - لا تجدان الزوجين هناك يحرصان على كثرة الأولاد، لأنه لا مصلحة مستدامة من هذا عندهم، بل هي خسارة بالمعايير المادية المُقَدَّسة عندهم، فدورهم مع الابن أو البنت هو دور **وصاية** إلى سن الثامنة عشرة، وليس دور **وِلاية**، ثم بعد هذا السِّن ترتفع الوصاية عنه بقوة القانون، فينطلق الابن أو البنت خارج البيت، ولا يُلزمان ببرهما ولا النفقة عليهما ولا القيام عليهما إذا كبِرا أو عجزا، كما هو الحال في النظام الإسلامي.

ولما كان حالهم كذلك؛ فإنك تجد الجنسين هناك يكتفيان في أحيان كثيرة إلى علاقة الصداقة، ثم إذا انقطعت لسبب أو لآخر، انتقل كل طرف منهما إلى صداقة جديدة، وهكذا حتى يصلا إلى مرحلة العجز، ثم ينتقلا إلى دار العجزة، أو يجلسا على فراش الموت الطبي في المستشفى حتى يموتا.

هذه التاسعة.

في مقابل هذا نجد أن الإسلام يحث على الاهتمام بالمرأة من حين تولد إلى أن تكبر وتشب، إلى أن تكون زوجة ثم أُما، وبعبارة موجزة فقد ضمن الإسلام للمرأة عشرين حقا، وهي مذكورة في مؤلف صغير منشور في شبكة المعلومات باسم (معاملة المرأة في الإسلام وحقوقها). http://www.saaid.net/The-clear-religion/038.pdf

وقد قرأت امرأة نصرانية اسمها كارمن هذه الحقوق فأرسلت لي رسالة قالت فيها (والرب أنا تمنيت لو أن لنا هذه الحقوق التي للبنت بدينكم الإسلام، وبكيت وأنا أقرأها).

هذه العاشرة.

فالبنت العاقلة تستفيد من تجارب غيرها ولا تكون محطة تجارب، وتستمتع بهذه الحقوق الربانية، لتعيش عزيزة مكرمة طوال عمرها، وتحذر من السير خلف أصحاب الشهوات والشبهات، الذين يُزيِّنون لها فكرة العيش والعمل في بلاد الكفار، وأن تُدير ظهرها لأهلها وتتنكر لهم، فقد قدمتُ لكِ حال المرأة هناك، سواء كانت من بني جلدتهم، أو من المهاجرات أو الهاربات إليهم، وليس

بخافٍ ما أظهرته وسائل التواصل من حقيقة الأمر لدى الغرب في حق المهاجرات إليهم، من ابتذال واستغلال.

فالمرأة عندهم بإيجاز – أيا كانت – في حال مواجهة واستهلاك ولهث طوال عمرها (بعد سن الثامنة عشر) مع الحياة وصعوباتها، ليس بينهما وسيط، لا أب ولا زوج ولا أبناء، (كالبهائم تماما بعد سِن الفِطام)، وإذا كانت ذات أبناء؛ فنفع الأبناء يعود لهم، أما هي فتأكل من حصيلة الضرائب التي كانت تدفعها طيلة حياتها، إذ الأبناء الذين استمتعوا بتربيتها، والأصدقاء الذين تلذذوا بجسدها؛ قد انفَضُّوا عنها، وصارت المسكينة تشعر بأن الحياة ليس لها معنى، وأنها لم تكسب أهم شيء، وهو وفاء الأبناء والمجتمع الذي خدمته طوال عمرها، وليس بخافٍ أن أفرادا ليسوا بالقليل في المجتمع الغربي والشرقي إذا ضاقت بهم السبل لجأوا إلى الانتحار، يظنونه هو الحل، ونهاية المطاف، لأنهم لا يؤمنون بما بعد الموت، عافانا الله من ذلك.

هذه هي الحادية عشرة.

والمعصوم من عصمه الله من فتنة الشهوات والشبهات، ووفَّقه للتمسك بشريعة رب الأرض والسماوات.

اللهم احفظ بنات المسلمين من شر الأشرار، وكيد الفجار، وشر طوارق الليل والنهار.

زينتها قلادةً في أحد عشر فصًّا، وصلى الله على محمد وآله.

أعده للنشر ماجد بن سليمان الرسي، مستفيدا من كلمة بهذا الخصوص للشيخ صالح بن عبد الرحمن الحصين، رحمه الله.

28 رجب 1440